

## الاتجاه الديالكتيكي في المدرسة الاقتصادية النمساوية

2015-07-27 حاتم حميد محسن

### مقدمة

ان استخدام الكلاسيك الجدد لمفهوم التوازن يعبر عن نموذج وضعي للفكر. اما الاتجاهات المغايرة بدءاً من الاقتصاد الماركسي والنمساوي وحتى ما بعد الكنزيين فهي تجسد نموذجا ديالكتيكيا للفكر في رفضها المشترك لتوازن الكلاسيك الجدد. هذه الورقة تعتمد على اعمال سيابارا(1)، التي يجادل فيها بان الاقتصاديين الماركسيين والنمساويين يشتركون بنفس الاتجاه الفكري الميثودولوجي. هو يرى ان جوهر الديالكتيك هو في اعتبار العمليات هي الاساس.

كانت المدرسة النمساوية في الفكر الاقتصادي تميزت اساسا بالمنهجية الديالكتيكية، وهي بهذا تشترك بنفس التراث مع الماركسية. هذه الرسالة مع انها لم تكن سهلة الفهم لكنها حظيت بالإعجاب من جانب تيار التحرريين، وبالذات النقاشات العلمية للاقتصاديين النمساويين. سوف نفحص هنا فهم سيابارا للديالكتيك ومن ثم تطبيقات الفكرة لدى الاقتصاديين النمساويين وبالذات لدى (هايك)(2).

تجدر الاشارة الى انه: 1- مع ان سيابارا ليس ماركسيا، لكن عمله يشكل تفسيراً صادقاً وحماسياً لماركس 2- فكرة سيابارا عن الديالكتيك هي محاولة فكرية عميقة للاستيعاب الجيد لما يعتبرها القضية المنهجية الاساسية للاقتصاد 3- يطرح سيابارا موقفاً مقنعاً عن المنهجية الديالكتيكية الضمنية لدى الاقتصاديين النمساويين 4- يشكل عمل سيابارا تحدياً للمنهجية غير الديالكتيكية لأرثوذكسية الكلاسيك الجدد، ويوفر اساساً لمحادثات واسعة ليس فقط بين الاقتصاديين الماركسيين والنمساويين وانما بين العناصر الاخرى للتيار المغاير (heterodoxy)، مثل مدرسة افكار ما بعد الكنزيين.

### تعريف الديالكتيك

سننظر في النقاط الرئيسية في عرض سيابارا وفهمه للاتجاه الديالكتي، مع ملاحظة عمق واتساع الاتجاه الذي تبناه. سنتطرق الى المظاهر الشائكة في فهمه للديالكتيك، والى القضية الرئيسية في موقفه من قانون عدم التناقض ومنزلة التناقض من وجهة النظر الديالكتيكية.

ماذا يعني سيابارا بالديالكتيك؟ جوابه جاء في التعريفات الرئيسية التالية :

"الديالكتيك يتطلب فحص الكل (whole) زمانيا (في لحظة زمنية معينة) وتاريخيا ( وفق الطريقة التي تطورت بها الظاهرة او اللغة عبر الزمن). في المنظور الاول، انه يتناول الاجزاء باعتبارها مترابطة منهجيا، مكونة الكل، بينما هي تتشكل منه. اما من الناحية التاريخية، يُفهم الديالكتيك كأى نظام ينشأ عبر الزمن، له ماضي وحاضر ومستقبل. انه يرفض فصل العناصر والاحداث والمشاكل والقضايا عن بعضها او عن النظام الذي تشكله تلك العناصر مجتمعة... المفكر الديالكتيكي يسعى ليس فقط للفهم النقدي للنظام، وانما ليغيّره بشكل جوهري".

"الديالكتيك هو توجه نحو تحليلات نصية للعلاقات المنهجية والديناميكية للعناصر ضمن الكلية... (الديالكتيك هو اسلوب للتفكير يؤكد على مركزية النص في التحليل - وتغيير - الانظمة الاجتماعية بمرور الزمن. انه يوفر بناءا منهجيا من الادوات التحليلية التي تمكّننا من مباشرة فعل منهجي لتحقيق هدف معين، اي، الفهم الصحيح للواقع وتحويله. في الاتجاه الديالكتيكي، يتم ادراك مظاهر الكلية منهجيا - اي، طبقا لارتباطاتها المكانية او الزمانية - وديناميكيا - اي، طبقا لارتباطاتها المتطورة تاريخيا. السمة المتكررة للتحقيق الديالكتيكي هي فهم الشيء عبر دراسة مظاهره المترابطة، الواقعة ضمن نظام محدد منهجيا ومفهوم بمرور الزمن، ومنطوي على الماضي والحاضر والتجسيّدات المحتملة للمستقبل.

هذه التعريفات الهامة وما تنطوي عليه من عناصر سوف تفرح الهيجليين والنمساويين والماركسيين ومفكري الانظمة وما بعد الكنزيين.

وهناك تعريفات اخرى تتضمن عدة جوانب من تعريف سيابارا : "الديالكتيك هو طريقة في التفكير. المنظور الديالكتيكي يركز ليس على العلاقات الخارجية بين عناصر ثابتة، وانما على العلاقات

الداخلية الديناميكية. هذه العلاقات تشكل وتتشكل بعناصر من الكل قيد التحقيق". "الديالكتيك يعيد بناء تفكيرنا حول الواقع عبر استبدال فكرة الاحساس المشترك بـ "الشيء"، كشيء له تاريخ وارتباطات خارجية مع اشياء اخرى، بفكرة "العمليات"، التي تحتوي على تاريخ وامكانية المستقبل، و"علاقات" كجزء من ارتباطها بعلاقات اخرى.

نقطة هامة تبرز من تعريفات الديالكتيك تشير الى ان الاحساس الديالكتيكي يبدأ بـ "الواقع الملموس"، او "العالم كما يجسد ذاته لنا". انه يهدف الى "فكر ملموس"، فيه العقل يعيد تشكيل الكل ككلية (totality)، اي، كبناء او وحدة مركبة من علاقات متعددة الابعاد وبدرجات مختلفة من التعقيد.. هذه الحركة من "الواقع الملموس" الى "الفكر الملموس" غير ممكنة بدون عملية من التجريد". هنا يقوم سيابارا بإعادة التأكيد على رؤية ماركس بان "الملموس هو ملموس لأنه تكثيف لعدة قوى، ومن ثم لوحدة التنوع... ان الطريقة في الانبثاق من الملموس الى الملموس هي الطريقة الوحيدة التي يكيف بها الفكر للملموس، يعيد انتاجه كالملموس في الذهن"(ماركس، Grundrisse، 101).

ان سيابارا على وعي تام بان عملية التجريد، التي تلعب دورا حاسما في تكيف الملموس واقعي كالملموس مثالي، هي عملية ذات خطين، اي انها عملية من لحظات تحليلية وتركيبية: "عملية التجريد هي عملية رسم حدود.. في رسم الحدود التي تحدد وحدتنا التحليلية، نحن لا نزيل الاجزاء من الكل. الوحدات ذاتها هي علاقات.. عملية التجريد.. تتطلب عملية ملازمة من التكامل. لا يستطيع احد التجريد بدون تكامل، ولا يستطيع احد ايضا التكامل بدون التجريد. لكي نفصل بين الاثنين، يرى سيابارا، يجب ان نقوم بتحويل المفهوم المجرد الى شيء مادي وهو ما يسميه سيابارا عمل في جدا هام هو المفهوم هذا. (3) reification

ان فكرة النص هي جوهر مفهوم سيابارا عن الديالكتيك، وهو يتكرر في كل الصفحات. اكثر التعريفات الملائمة الواردة في القواميس للنص هو "بناء مركب من مقاطع مترابطة يُنظر اليها من حيث صلتها باي من الاجزاء المكونة له. وبتمديد المفهوم نحن نستطيع بوضوح تطبيقه ليس فقط على المقاطع الادبية وانما على العالم كله او على اي جزء منه يُفهم ككل مترابط. يشير سيابارا بموافقته على الكلمة المشتقة من الاصل اللاتيني "ينسج خيوط القماش الى بعضها".

## نقد ديالكتيك سيابارا

في معرض النقد هنا لا نعني ان سيابارا خاطئا او فاشلا امام العالم، وانما الهدف الانخراط مع مساهماته والبحث عن طرق الى الامام بروح من الانفتاح تجاه ادعاء بعض الكتاب المعاصرين عدم كشفه للارضية المشتركة. سيابارا يفهم (الكل) بطريقة مختلفة. في الاتجاه الديالكتيكي الحقيقي، يُفهم الكل كشيء في العالم فيه بناء ديالكتيكي داخلي يحتوي على التناقضات التي تدفعه دائما الى الامام. لكن الكل لدى سيابارا لا يبدو حول العالم وانما حول فهمنا له، انه حول الاستيمولوجي وليس الانطولوجي. الكلية بهذا ليس شيئا في الخارج نسعى لفهمه وانما هو فكرة او نموذج في ذهننا ينتج عن محاولة فهم العالم. فلا اشارة بان هذا النموذج الذهني يتطابق مع اي شيء موضوعي. هو يقول ان الديالكتيك هو اسلوب للتفكير وليس الاسلوب للتفكير الذي نحن ملزمين بتبنيه بواسطة الطبيعة الديالكتيكية التناقضية للعالم الذي نعيش فيه.

القضية الاخرى التي هي مثار للنقد هي حول قانون عدم التناقض.

القوانين الثلاثة للمنطق الرسمي هي:

1- قانون التناقض - الشيء لا يمكن ان يوجد ولا يوجد في نفس الوقت.

2- قانون الوسط المستبعد - الشيء اما يوجد او لا يوجد، لا وسط بينهما.

3- قانون الهوية - الشيء دائما مطابق لذاته.

جميع هذه القوانين الثلاثة تُنتهك في الديالكتيك. لو اخذنا مثال "البداية" وهو المثال الذي يشير اليه هيجل في (مدخل لعلم المنطق). عندما ننظر في بداية اي شيء، فان الشيء يكون في كلا الحالتين:

أ- هو

ب- ليس هو

كل من (أ) و (ب) صحيحان، لأنه اذا كانت (أ) وحدها صحيحة فان الشيء يكون بدأ سلفا، واذا كانت (ب) وحدها صحيحة فان الشيء لن يبدأ بعد.

القانون(1) يُنتهك بحقيقة ان الشيء ذاته يوجد ولا يوجد.

القانون(2) يُنتهك لأن البداية هي بالضبط الوسط بين عدم وجود الشيء (قبل بدايته)، ووجوده (فيما بعد).

القانون (3) يُنتهك لأن الشيء ليس دائما مطابق لذاته، وانما يتغير، في تناقض مع نفسه، يتحرك قدما من لحظة الى اخرى، من اللاوجود الى الوجود. ما موجود في لحظة معينة ليس هو في لحظة اخرى، انه في تحول دائم.

الطريقة الوحيدة التي يمكن تطبيق القوانين الثلاثة بها هي تجميد الزمن. في لحظة واحدة من الزمن ومع اعتبار قيود المنطق في اقصر فاصلة زمنية، فان القوانين الثلاثة تصلح للعمل، ولن تكون هناك تناقضات. غير ان هذا تجريد مفيد بلاشك لكنه لا يجسد الواقع. هذا هو جوهر الديالكتيك الذي يتفق عليه كل من هيجل وماركس. وفي الضد من ذلك يأتي كانط الذي يعتبر التناقضات ليست الجوهر، وانما هي شيء ما ظاهري وليست شيئا موجودا في العالم، هي خطأ او عدم كفاية في الطريقة التي نتصور بها العالم. الديالكتيك ليس بديلا عن المنطق الرسمي، كلاهما صالحان حينما يُطبَّقان بشكل صحيح.

ديالكتيك هايك

الآن سنحاول تلخيص حجة سيابارا بان عمل هايك كان مرتكزا على اتجاه ديالكتيكي لمشكلة تأسيس علم اجتماعي غير اختزالي.

وبعيدا عن التفاصيل، يلاحظ سيارا الجذور المشتركة لوجهات النظر النمساوية والماركسية في التقاليد الارسطية والفلسفة الالمانية الكلاسيكية والتنوير الاسكتلندي. هو يربط هذا مباشرة بديناميتها ورفضها للتوازن الثابت للارثودوكسية الكلاسيكية الجديدة، ورفضها لحدودها الضيقة المتعددة الحقول:

"النمساويون والماركسيون كانت لديهم دائما المقدرة لإثارة اسئلة اساسية متشابهة. كلا المدرستين من الفكر كانت متأثرة فكريا بمجموعة من التقاليد الارسطية والالمانية والاسكتلندية. كلاهما يشتركان بالرؤية بان الواقع الاجتماعي هو عملية ديناميكية تتشكل بواسطة الفعل الانساني. كلاهما ينتقد التحليلات الاقتصادية السائدة والثابتة والمرتكزة على التوازن. كلاهما يرفض الفصل بين العالم الاقتصادي والكل الاجتماعي العضوي حيث الاول جزء من الاخير".

سيابارا لا يقول بان هايك ادعى صراحة تبني الاتجاه الديالكتيكي. فكيف اذاً يكون ديالكتيكيًا؟ "الديالكتيك لا غنى عنه للعقل المفكر. هو مظهر للتفكير... من الممكن ان نجد تجليات لقدرة الذهن الديالكتيكية حتى بين المفكرين غير الديالكتيكيين. يقتبس سيابارا من تروتسكي " كل فرد هو ديالكتيكي بدرجة او باخرى، في اغلب الحالات، بلا وعي". اذاً ما هو الاساس الذي اعتمد عليه سيابارا في الادعاء باللحظة الديالكتيكية الهامة في فكر هايك؟

اساساً، ادعاء سيابارا هو ان هايك لديه اتجاه ديالكتيكي يتمثل بفهمه للعلاقات العضوية بين الافراد الذين يؤلفون المجتمع الذي يندغمون فيه والذي يقرر معنى ما يقومون به: "الطريقة الديالكتيكية، كما استخدمت من قبل ماركس وهايك، تحتفظ بالتكامل التحليلي والوحدة العضوية للكل.. انها تتجنب التجزئة، اي، انها تتجنب فصل الجزء من الكل. الطريقة الديالكتيكية تعترف بان ما يمكن فصله في الفكر لا يمكن فصله في الواقع". ان الوحدة العضوية، كما يرى هايك، تقيم في الكل، لكن الكل ليس تراكما لأشياء ملاحظة انفراديا. انه يتألف من تراكيب من العلاقات تُدرك من خلال عدسة النظرية. هذه التراكيب هي متواصلة وقابلة للتطبيق على المجتمع العضوي.

لكي يوضح، يقتبس سيابارا من (النظام الحسي لهايك): "كما في الاحياء البايولوجية نحن عادة نلاحظ في التكوينات الاجتماعية العفوية ان الاجزاء تتحرك كما لو ان هدفها هو الحفاظ على الكل.. في

العالم الاجتماعي هذه الحركات العفوية تحافظ على ارتباطات هيكلية معينة بين الاجزاء". هو ربما اقتبس جيدا مقطعا يضع المكانة النظرية للفرد في اتجاه هايك: "الافراد هم النقطة المركزية في شبكة العلاقات". هذا هو عالم بعيد عن تصور الكلاسيكيين الجدد مثل ملتن فريدمن الذي يؤكد على ان الاقتصاد هو دراسة "مجموعة من روبنسن كروسو".

في الفصل الاول من "الديالكتيك الهايكي" يحدد سيابارا القضية الاساسية بقوله: "الفردية الميثدولوجيكية.. عادة جرى تشخيصها بالذرية، الاختزالية، والتاريخية. قيل ان الكل هو مجرد مجموع اجزاءه. انه يرى الفرد او الجزء هو الاهمية الاستمولوجية الرئيسية، ويركّب الكل من خلال عملية تحليلية مضافة". هذا هو بالضبط ما يقوم به الارثودوكسي، يقارن (دينس) الاختزالية الميثدولوجيكية لهؤلاء الكلاسيك الجدد امثال (فريدمن) و(لوكاس) مع الميثدولوجيكية الكلية انها". ككلية الكل بفهم مهتم هو: الذرية تهمة ضد هايك عن يدافع سيابارا. وسمت لهايك (holism) عملية تشويه حين نظر الى اتجاه هايك اما فردي او كلي. طريقة هايك هي ديالكتيكية في الجوهر، تضم عناصر من الفردانية والكلية.. الفحص المفصل لنموذج هايك في التحقيق يشير الى انه كان ديالكتيكي الى حد كبير في عدة طرق هامة".

"في جميع كتابات هايك، هناك تأكيد حاسم على اهمية السياق المنهجي والتاريخي، وعلى الوحدة العضوية المعقدة والمتطورة للعالم الاجتماعي. هذا الفهم يشكل جوهر الطريقة المعقدة للاختزالية للتحقيق الاجتماعي. كل من هايك وبوبر يجادلان ضد الاختزالية في العلوم الاجتماعية طالما ان المجتمع اكبر من مجموع اجزاءه. الاختزالية تثق بالاسطورة التاريخية حسب رؤية بوبر لأنها ترى الكائن البشري نوعا ما ايجابي. وكما يجادل بوبر ان اسلاف الانسان كانوا اجتماعيين قبل ان يكونوا اناسا.. الناس هم نتاج للحياة في المجتمع بدلا من ان يكونوا الخالقين له.. هايك يرى ان الفرد، العقل، الاخلاق، الثقافة هي سمات طارئة للتطور الاجتماعي. هو يؤكد بان لا يوجد هناك مفهوم للفرد غير مرتبط بالبناء التاريخي والاجتماعي المعين، هو يرى تبادلا معقدا بين الاجزاء والكل".

استنتاج



الهدف من قراءة اعمال سيابارا هنا هو اولا، لتسليط الضوء على ارضية مشتركة وعلى مساحة الاتفاق، وثانيا، لنبيّن النقاط و والمساحات التي يمكن فيها تقوية تصورات سيابارا وتجسيدها للديالكتيك، حيث انه حالما يُوضّح منطقهُ الخاص، سيكون اشارة نحو فهم جديد.

هناك الكثير لدى سياباريا يمكن تطويره وتمديده بشكل بنّاء. الاتجاه الاكثر وضوحا للبحث هنا هو موقف كنز. جادل سيابارا بان الاقتصاديين النمساويين - وبلا وعي - هم ديكالكتيكيين. وعلى خلفية مشابهة يمكن للمرء بناء حجة قوية بان (النظرية العامة) لكنز تمثل رؤية وطريقة ديكالكتيكية عميقة. كنز يتبنى وجهة نظر عضوية او كلية في (النظرية العامة)، حين عارض "اختزالية" ما سماه المدرسة الكلاسيكية. نقطة سيابارا الرئيسية حول ميثولوجيا هايك هي اذ"العضوية" لديه تمثل توجهًا ديكالكتيكا ضمنيا، اما نظيرتها "الذرية"(الاختزالية)، هي مساوية لرفض الديالكتيك.

اول موقف لكلية كنز او الديالكتيك يتعلق بتبنيّه صيغة ماركس في دورة السلع، حيث (C - M من باعُ الاستعمالية القيمة او السلعة ان تقول الاولى الصيغة. (M - C - M\*) المال رأس و (C\*) - اجل شراء سلعة اخرى: الفرق بين السلعة الاولى (C) والسلعة الثانية (C\*) هو نوعي. اما الصيغة الثانية تقول ان النقود (M) تُستبدل بالسلع من اجل بيع سلع واكتساب المزيد من النقود: الفرق بين تمثل الثانية بينما، الخاص المستهلك موقف هي الاولى ان الى يشير كنز. كمي هو (M\*) و (M) موقف الشركات. هنا نقف على رؤية سيابارا الجوهرية في التفكير الديالكتيكي. نجد ايضا اعترافا ضمنيا بان ظهور الرأسمالية من الأَبسط، والمزيد من وسائل الانتاج يستلزم انقلابا ديكالكتيكا وتحولا من النوعي الى الكمي.

اما من وجهة نظر الشركات، فان هيكل الحوافز في ظل الرأسمالية، يتطلب تناقضات، وحسب رؤية كنز: رغم اننا نتصرف كما لو ان الانتاج يتم لأجل ذاته، لكن هذا لا يمكن ان يكون صادقا. يشير كنز مرارا وتكرارا في كتابه (النظرية العامة) الى ان الاستهلاك هو الفعالية الاقتصادية الوحيدة التي تعتبر هدف ووسيلة. ذلك لأن الانتاج يجب ان يُفعل عبر الاستهلاك لكي يُعد انتاجا: المخرجات يجب ان تباع لكي تتحول مجددا الى نقود، وهي في الحقيقة اكثر نقودا مما بدأنا به. ان إخضاع الغايات للوسائل، او الاستهلاك للانتاج يعني ضمنا ان الرأسمالية تضع باستمرار عائقا متجددا للتراكم على شكل (تحت - الاستهلاك) وفشلا في الطلب المتراكم. طريقة كنز هذه تنسجم جيدا مع تعريف





(2) فردريك هايك اقتصادي وفيلسوف بريطاني وُلد في النمسا عام 1899 وعُرف بدفاعه الشهير عن الليبرالية الكلاسيكية. توفي عام 1992 ومن مؤلفاته: الطريق الى العبودية صدر عام 1944، وكتاب دستور الحرية عام 1960، وكتاب الفردية والنظام الاقتصادي عام 1949.

(2) يشير هذا المفهوم الى عملية التشيؤ او تحويل المفهوم المجرد الى شيء مادي. وكذلك حين يتم التعامل مع العمال كأشياء مادية او كسلعة مجردة من الخصائص الفردية فهذا في نظر ماركس يجسد الـ reification.

.....

\* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية